التزام الأدب الحديث

بقلم : مطاع صفدي

إن الأدب الملتزم ، كما استطعت ان أتبينه من تجربتي الخاصة قارئاً وكاتباً، ليس هو ذلك التفهم المنطقي لاعتبار قيمي موضوعي ، ينقل وعي الكاتب الى خارج منه ويضطره للخضوع إلى ما اشبه بالواجب ، في محاولته التقرب بقدر الامكان من مناوشة النماذج المبدعة ، وبذلك يكون هذا الأدب نتاج مبدأ سابق ، لا وسيلة لابداع المبدأ . والحقيقة إن الصراع الذي يتجاذب نفس الكاتب ، بين ان يترسم ملامح الواقع ، وبين ان يلون ذلك الواقع بانعكاسات تواجده الذاتي تلقاءه ، هو الصراع الذي يجعل القلم يرتجف ، قاذفاً بسيالة الحياة المشخصة ، ارتجافة القلم المقيد الذي يفقد عفويته ، ويكتب بغير مداده. وليست الدعوة دائماً الى أدب واقعي إلا دعوة سطحية تأتي دائماً من خارج الأدب الصحيح . فهي تعني الدعوة إلى ضرورة إعادة تمثيل الوقائع ، مشتقة منها تفاصيلها ذات المعاني، ومشذبة منها دفعتها الطائشة وصدفتها ، وضاغطة إياها في إرادة لتسريد المنطقي. والانسان في محاولته تسريد الواقع مرة ثانية انما يدخل فيه عقله وهو يدري او لا يدري . وهكذا يتعقل هذا الواقع ويبتعد كثيراً عن اصله ، وهو الصدفة ومما يشبه الفوضى المتناقضة . فالأدب الواقعي مهما نحا جهة الموضوعية ، فانه لا بد متلوث بذاتية الأديب التعقيلية الفنية . وفي الأدب الملتزم ما يشبه هذه الواقعية، إلا أنها واقعية توضع، هذه المرة، وضعها الصحيح. وفي هذا الأدب ايضاً ذاتية. غير أنها الذاتية الجدلية مع الواقعية الخارجية . ولفهم هذه المسألة ينبغي أن نعود قليلاً إلى آراء سارتر .

يريدنا سارتر (*) ان نلقى الواقع أحراراً ، أو بالأحرى أقرب ما نكون إلى الوجود الخام المجرد عن كل تخطيط قبلي، أو ماهية سابقة . وبهذا نجعل طبيعتنا الوجودية تتكافأ وطبيعة العالم القائمة على اللا منطق ، ونتقرب عن طريق هذا التكافؤ ، ما أمكن من الحقيقة . ولكن مشكلة العالم ، عند سارتر ، هي أنه ليس عالماً منفصلاً عن الانسان المدرك له ، وهو أقرب دائماً إلى أن يكون عالماً من خلق الذات ، أو على الأقل ، وهو لا يتعدى بذلك مبدأ « هيدجر » الاصلي ، إننا لا نعترف بأي وجود خارجي ، إلا من حيث كونه أوليا جداً ، ولن يأخذ معناه وتبريره الموضوعي ، إلا بقدر ما تتحقق إمكانيات الوجود الانساني الفردي ، عن طريق الفعل المشخص . ومقياس هذا الفعل إمكان تحقيق التغير في خارطة العالم . فالنمو الوجودي متناظر بين كل من الطرفين : الذات والعالم . إذ يبدأ كل منهما مما يشبه الوجود التجريدي ، أو على الأقل الوجود الخام . وخلال الزمان ، والزمان المستقبل وحده ، لا يلبث كل من الوجودين ان يندمج في حركة فاصلة جامعة، هي كالجدل الهيغلي. حركة ماتفتأ تعمق وتحتدم حتى يتحقق طرفا الوجود (الانسان ـ العالم) تحققا إشكالياً دائماً ، بأن يحصل الوجود الانساني الفردي على ماهيته، ويفقدها باستمرار . وماهيته هذه هي فعله الامكاني المتحقق في الخارج ، في تغييره لخارطة العالم . ونحن هنا لانحدد كون الفرد فاعلاً وكون الموضوع منفعلاً فحسب ، بل كثيراً ما تتبادل الأدوار بشكل صراع دائم. وكأننا بذلك امام اتجاه واقعي جداً لأول مرة ، إلا انه اتجاه لا يقلل من قيمة الذات لحساب الموضوع كما تفعل الاتجاهات الواقعية المستوردة من خارج الأدب، من العلم. حتى انه لا يمكننا ان نعترف إلا بهذه العلاقة التي هي كل الحقيقة الواقعية وهي (الوجود ـ في ـ العالم) وكلمة الوجود هنا تعني الوجود الانساني ، وتعني العالم معاشا ومنظوراً اليه من خلال

« تحاول الاجيال الصاعدة اليوم ان تتصل بوجدان الأمة ثانية، من خلال الزيف الكبير الذي تراكم عليه طيلة عهود الظلام والانحطاط . والادب الحدسي الملتزم الاخلاص ، قبل كل شيء ، لأكثر الموضوعات حيوية وتجاوباً مع مطالب الامة ، والمتفاعل مع انسانيتها التأريخية ، هذا الادب هو طريق الحياة العربية الى وجدانها الاصيل . وهو طريق الثورة نفسه التي نلمحها في جميع احوال الواقع الراهن للوجود العربي اليوم . »

(*) تعقيب : كنا نود من الاستاذ الكاتب ان يشير الى المصدر الذي استقى منه هذه الاستشهادات .

« الآداب »

هذا الوجود الانساني نفسه .

وعلى هذا كان الادب الالتزامي محاولة لألتزام الصدق في مواجهة الواقع الانساني – العالمي معاً كما هو . انه إعداد لتقبّل ما ليس يخطر ببال متنبىء . وهو تحضير وجودي لمعاناة الحوادث التي تأتي بها العفوية المطلقة ، دون اي سعي لتشويهها بمحاولة التبرير التي تخرج من حرارة الحادثة الى برودة التأمل . وهو نظرة نحو المستقبل . انه الادب – الافق ، إن صح التعبير . بمقابل الانسان – الافق L'homme de lointain عند هيدجر اي هذه الحاجة الى الحركة المبدعة لذاتها ، والتي تكتشف في نفسها كل ما يفاجئها وأكثر مما تخاله عنها . فهو بحث عن الاشياء التي تشغل ابعاداً في العالم ، وعن الحوادث التي تشغل مكاناً نفسياً ، اي زمانياً في الانسان ، قبل ان يكون بحثاً عن ظلال هذه الاشياء والحوادث . ولذلك كان قاسياً جداً . فهو يلقى الواقع كما هو ، دون اي تعقيل ، دون اي تزييف ، دون اي مبدأ سابق . **انه الاخلاص الحي للهنيهة الواقعية الملهمة مهما كان طابعها** . واذا كان لنا ان نصف هذا الادب بقول ينطبق عليه تماماً ، قلنا انه ليس بالالتزامي قط ! وما هذا بالقول المتناقض ، رغم ما يبدو لأول وهلة ؛ انه لا يتكلم عن مبادىء يصادرها مصادرة ، اولاً ثم يجعل منها ادباً ، بقدر ما قد يلقاها ضمن خطوطه الخاصة على شكل حياة مشخصة ، تبنّاها تلقائياً في حركته المستقلة . وقد لا يجد مبادىء ابداً . وقد لا يعثر على اثر للنظام المفتعل ، او على القانون المتخيل الذي يضبط به عقل الانسان الوقائع ليفهمها ، ومن ثم يستعملها لخدمته . اما هذا الادب فليس نفعياً على الاطلاق ، ولا يحتاج الى فهم الوقائع إذ ليست بذاتها قابلة للفهم بقدر ما هي قابلة للمعاناة والتجربة التي لا تتكرر .

وأما هذه المبادىء ، فيدخل في نطاقها أوامر الأخلاق والدين والمجتمع والعلم ، وكل ما يريد ان يحكّم القانون في ذاتية الانسان بدل الطفرة ، وان يجعل من الفرد الانسان – النسخة بدلاً من النموذج الخارق . فالانسان ، في الرواية الالتزامية ، نموذج ذاته وإبداع حريته ونتاج إمكانيته . غير أنه ، لكي يبلغ هذه المرحلة ، اي ان يخلق ذاته بحرية تامة ، ولكي يصبح قادراً على الحياة كنموذج ، يجب ان يسعى لازالة كل القشور الميتة والعوائق والترسبات التي عملت الحياة الموضوعية ، الحياة كالآخر ، الحياة كنسخة لا جديد فيها ، عملت على إلباسه إياها للقضاء على تخطيطه الخاص ، ومشروعه الشخصي . ولذلك كان هذا الادب لا يزال يستمر في مرحلة سلبية نضالية للفوز بالانسان الحقيقي الذي لن يصنعه هو وفقاً لمبادىء ونماذج خارجة ، بل سيجده مطموراً تحت آكام الاوهام الاعتبارية والقيمية والموضوعية . ونلقى حركية هذا الموجود الانساني الذي يبحث عنه ادب الالتزام ، في القدر الذي يخلص به لامكانيته المتحققة زماناً مستقبلاً ووجوداً ماهوياً يتجاوز ذاته باستمرار نحو ماهية أخرى . فالالتزام نوع من مسايرة حقيقة الوجود بشكله الانساني – العالمي معاً .

وعلى هذا يصبح الادب ميتافيزيقياً ما دام محاولة دائبة لاكتشاف المصير ، هذه النقطة الاخيرة التي تلتقي عندها كل سلاسل المصادفات بمصادفة حاسمة . والكشف عن المصير ليس وظيفة جديدة للأدب . ولكن المصير هو الذي اصبح ذا مفهوم جديد هنا . إنه ليس غاية اخيرة للفرد ، وحياته واسطة وطريق لها . وإلا وقعنا في الترتيب العقلاني السكوني نفسه الذي نثور عليه الآن . هذا المصير متناقض . فهو نهاية ، دون ان يعد لها شيء . انه ايضاً حادثة . وقد لا يكون لها اي معنى . هذا المصير مجرد مصادفة كبرى ليس وراءها إلا صمت مطلق ، ونحن نستطيع ان نصفها وصفاً لا ان نعقلها عقلاً . ولهذا ، يبدو الادب هنا افصح من الفلسفة . ومن هنا ايضاً لجأت الفلسفة الى الادب ، إذ ان المصير ليس واحداً ، وإن كان شكله الاطاري متجانساً وواحداً . إنه يختلف المضمون لاختلاف النماذج الكثيرة المتباينة التي ستحققه . وما لجوء الفلسفة الى الادب إلا ليجعلها وقائع زمانية وكثرة بالحوادث لا حد لها . إذ انها تحتاج حقاً الى الوصف اكثر من استكناه المعنى وتعميم المفاهيم ووضع القضايا المطلقة . إلا انها طلبت من هذا الادب ألا يكتفي بالوصف بقدر ما يسعى الى ان يصبح موسيقياً . اي يمكنه دائماً ، على غناه غير المحدود بالجزئيات والوقائع المتكثرة والاختلافات اللونية ، ان يرمز الى المطلق . المطلق الذي اصبح مماشياً للزمان اللا متجانس نفسه ، الزمان الحي النفسي . وليس هذا المطلق ، في نهاية البحث ، إلا محاولة في الوجود الى أقصاه ، حراً غامضاً عنيفاً .

إن الأدب الملتزم مفاجأة لذاته ، واعداد عفوي للمفاجأة . انه يريد ان يكون الحياة نفسها . ولهذا فهو كائن حي موجود ويحتمل جميع مقولات وجوده . اي انه وجود اكثر منه

ماهية . اذ انه في حركة نشيطة نحو الكمال الذي لن يعرفه مطلقاً . هو فرصة وسيفسح مجالاً دائماً للفرص. وهو قفزات على هُواه التي هي جزء اصيل فيه ايضاً . يريد ان يستقطب اعنف الحوادث ودون ان يفرض عليها تبريراً من خارجها ، اذ هو نفسه لا يحمل تبريره من البدء .

ويتعرض باستمرار للنموذج الذي لم يَعْدُه احد، حتى هو. وهذا النموذج ليس ابداً بطلاً بالمعنى الاسطوري . غير انه يعيش كما يعيش الآخرون . ولكن حياته تدفعه الى وجهة نظر معينة اشبه **بالحدس الباطني بالمصير غير المعقول** . واذا قلنا الادب الالتزامي ادب النمودج ، فليس يعني هذا ان النموذج عينة من جنس او نوع . وإلا عدنا لمقولات الوجود الكلاسيكية والى التصنيف المفتعل الذي يقوم على عدم الشخصية والحرية . **وانما هو نموذج من حيث انه قادر رغم فرديته العنيفة ، على مخاطبة اوسع افق انساني يضم اكثر عدد من النماذج** . ولا عجب فهنا كل فرد نموذج . وهو في مخاطبته الآخرين انما يصل اليهم عن طريق طبيعته النموذجية هذه ، التي تكافىء طبيعتهم وتشبهها ، والتي مع ذلك تختلف فرديتها الى اقصى حد . فالحب مثلاً موضوع عام تشترك كامل الانسانية السوية فيه ولكن مع ذلك لم يزل المجال واسعاً لأن نجد دائماً جديداً في هذا الحب الحب نتكلم عنه كثيراً . ان اللونيات (nuances?) لا نهاية لها في الافراد . وكلما امعنا الدقة فيها اكتشفنا الشخصية الفردية وعملنا على انمائها ، وانماء علاقاتها بغيرها .

فليس هناك ، في هذا الادب ، ما يسمح لنا بالتحدث عن مشكلة للأدب الفردي ، او الاجتماعي ، القومي او الانساني ، الذاتي او الموضوعي، رومانسي او كلاسي . فكأنه في مستوى تضاءلت فيه هذه النوعية . حتى تلاشت . وبطلت بذلك كل مشاكلها الفاسدة اصلاً . فقد نلقى فيه جميع هذه الانواع ، دون ان نلقى فيه واحداً منها . وماذلك إلا لأنه ادب **حدسي** في آخر البحث ، يهتم بالصدق والواقعية والاخلاص قبل كل شيء . ولا يضيره ايّ موضوع تناول .

ان الالتزام الحدسي شعر حقيقي . فهو قدرة نشيطة جداً ، على الكشف الايقاعي غير الرتيب ، اللحني Rythme mélodique كشف لا يستهدف معميات والغازاً . انه استقطاب مثمر للعفوية الخالصة . فلا يعيد تمثيل الحياة. ولا يفسح مجالاً لتكرار الشخصيات ، ينقلها من النطاق اللامحدود الى النطاق التجسيمي النهائي في الالفاظ والعبارات . ونحن نجد اشخاصه قريبين جداً منا : قد يسكنون دارنا . او يجاورونا في حيّنا وعملنا . ولكن اذا بحثنا عنهم لا نجدهم ابداً . وبهذا تصبح الاسطورة شيئاً عادياً ومفهومة جداً . حتى في لا معقولاتها.

وهذا الكشف ، اذا كان يتعرض لحوادث الشخصية المحكية ادباً ، والتي امكن ضبطها ماديا في علاقاتها المختلفة مع اشخاص العالم الخارجي واشيائه، والتي شغلت اوقاتاً من ماضي زمانها الخاص ، فهو يتصدى اكثر واكثر لجميع الحوادث التي ليست كذلك . اي لتلك الضائعات المبهمات في الحياة العميقة السادرة لهذه الشخصية ، في مجال وجودها التهويميّ ، غير الموجود . وما اوسعه من مجال ! مجال الفكرة التي لم تصبح فكرة بعد، ومجال اللاوعي الذي لن يستوعبه الوعي، والوقائع التي ليس لها اي واقع منظور مراقب من الآخرين . إن هذه الحوادث الخفية الميتافيزيقية المبهمة، هذه الحياة التي لا تتسع لها ابداً حياة السنين المحدودة، والتي لن تستوعب وقائعها الظروف القليلة ، والمجالات المزدحمة ، هي من اكبر مهمات الادب الالتزامي : اولاً في محاولته التعرف عليها من خلال الامارات والاشارات الخارجية ، وثانياً من خلال حركة ارتباطها مع مصير الشخصية العام . وثالثا في استكناه مصيرها الذي لا تعرفه ابداً . وكل ذلك في فيض مطلق من الايمان بقيمة هذه الآفاق الظليلة في جعل حياة الشخصية اعظم وأوسع وأخلد مما هي في واقعها الواضح . والايمان بقيمتها اكثر ، من حيث كونها ، اكبر نتيجة طبيعية لطاقة العفوية الواقعية للشخصية المحكية ادبا، ومن حيث ان هذه الطاقة هي التي يتواجد الاديب مع ايجابيتها ، بإخلاصه ، عن طريق حدسه الاصيل مع مطلق الشخصية وتحققاتها الافرادية التي تمنحها كل معناها بعد ان كانت تجريداً وتخطيطاً صورياً .

فكل ما يعمله الاديب الملتزم هنا ان يحدس دائماً ، ان يتفتح نحو العالم، وان يكتشف في الواقع اكثر مما يوجد فيه. ان يلبي حاجة الشجرة لأن تثمر اكثر مما اثمرت ، وأثقل مما حملته اغصانها . وفي هذا لا يكشف فحسب عوالم جديدة لنا بل يحاول ان يلهبنا حنيناً الى ان نعيش اقصى ما نستطيع من العيش المليء ، والى ان نكون نماذج وجودنا .. نماذج لا نخلقها حتى نحطمها . ويُغرينا دائما بالمثل الاعلى الذي هو الواقع المستقبل نفسه . فالحدس عمل ضخم جبار ، وإن كان يحدث عفوياً وفي

زمـــان لا زمان له . ويحتاج الى قدرة لا نجمعهـــا له إراديا . بل هو يطلقها فينا بقوته الخاصة ، ثم يستعين بهـــا لأستمراره ذاته . ولهذا ليس له موضوع محدد سابقاً ، كما انه لا يفتعل افتعالاً . فهذا الادب الالتزامي للحدس ، ليس شعبياً ولا اشتراكياً وليس انسانياً ولا قومياً . انه الحدس ، انه الحدس ، لشدة واقعيته واخلاصه ، يكتشف الموضوع الأشد واقعيـــة واخلاصا ، وأعظم قيمة في الحياة الراهنة . ولهذا فستكون له كل هذه الصفات دفعة واحدة ، ولا يكون لواحدة منها .

وهذا هو الأدب بدون مدارس وهـــذا هو الأدب المتمرد على التنظيم ، والحي المحطم لكل قالب . والذي لن يحتكره عصر دون عصر ، او حضارة دون حضارة . وهو الأدب العربي الصحيح ذاته . وما فشل جميع المحـــاولات لتنظيم الادب العربي ضمن أطر المدارس التقليدية ، التي تقاسمت حياة الادب الاوربي ، إلا نتيجة لطبيعة ادبنا غير المحدودة المطلقة .

إن الجاهلية كانت مرحلته النموذجية ، التي لا تقاس قيمة كل مرحلة تالية عليها إلا بالنسبة لقيمها الاصلية ، وهي قـــيم الالتزام الحدسي نفسه . اي إخلاص مطلق للهنيهة الملهمة مهما كان طابعها . والتي تختصر كل الموضوع من صميمـــه ، برعشة الابداع ، وعفوية تتصل بوشائج الواقع الملون بذاتية المبـدع نفسه . وإخلاص لجاذبية الحيـــاة الخفية الغامضة .. وإبراز للنموذج الموجود وغير الموجود معاً ، من الانفعال والفكر والتشخيص الانساني . وكل ذلك دون سابق تصمـــيم ، او إرادة في إعادة حياة الوقائع على المسرح اللفظي ثانية ؛ بل إغناء وقائع الحياة بوقائع جديدة ، اكثر فنية ، لكي تفسح آفاقاً للتطلع والتقدم واستلهام المثل الاعلى ، الذي لم تتخل عنـــه الروح العربية يوماً . وأكثر فنيـــة ايضاً ، لكي تبني الجانب الآخر غير الموجود ، من النموذج .

واذ اصبحت الحيـاة ترفاً في العهود الاسلامية ، وزخرف قصور ، وتضاؤلاً مستمراً للحيـاة الطبيعية التي فقدها العربي ، وللوجود الجماهيري ، الذي كان هيكل الفترة الجاهلية — اصبح الأدب ايضا هكذا زخرفيا تنميقيا ، شكلاً فقير المضمون . واصبح الحدس مكبوتاً لأنـــه أقصى عن التعبير الحر ، حين صار الغرض لا إظهار فنية المبدع ومحاولة إغنائه للوجود الانساني بقدر ما هو ارضاء لذوق مشتري الفن ، ولم يكن الجمهور ابداً الحاكم والقيّم على هذا الابداع الذي لن يحسّ فيه اي مشكلة حقيقية . واذا صح القول ، فقد تحول الحدس الى حدس بالزخرف . ولا بد انه كان يوجد ثمة ابداع عربي في تلك الآونة . ونحن إذا وجدناه فيجب ان نستدل على ان هذا الابـــداع نفسه كان نتيجـة لشيء من الحدس الذي ارتقت تقنيته على حساب اصالته وروحيته وسجيته المنطلقة .

واليوم تحاول الاجيال الصاعدة ان تتصل من جديد بوجدان الامة ثانية ، من خلال الزيف الكبير الذي تراكم عليه طيـــلة عهود الظلام والانحطاط . والادب الحدسي الملتزم الاخلاص ، قبل كل شيء ، لأكثر الموضوعات حيوية وتجاوبا مع مطالب الامة ، والمتفاعل مع انسانيتها التاريخية ، هذا الادب هو طريق الحياة العربية الى وجدانها الاصيل . وهو طريق الثورة نفسه ، التي نلمحها في جميع احوال الواقع الراهن للوجود العربي اليوم .

وليس للاديب الملتزم ، في محاولتنا الحضارية الجديدة ، ان يفترض الالتزام كنقطة للانطلاق . بل الحقيقـة ، إن مقدار التحسس الدقيق بأصالة الأدب الذي يبدعه الكاتب هو الذي يدفعه الى الاتصال بالواقع ، وإتمام واقعيته بالجانب الفني الخيالي الذي لن يُفهم الواقـــع من دونه ولن تكون له اي جاذبية حـلوة . وسننتظر بعد ذلك ان نلقى جميع المشاكل المعاصرة مطروحة على بساطها الفني ، دون اي افتعال .

بقي ان نتحدث عن وسيلة هذا الأدب ووظيفته في مهمته الجديدة التاريخية ، وهذا ما سنجعله موضوعاً لحديث آخر يتناول القصة ، باعتبارها هذه الوسيلة الكاملة الحية للتعبير عن الأدب الذى نحتاج اليه اليوم .

دمشق — **مطاع صفدي**

صدر حديثاً — عن دار سعد مصر

عطف أمر

وقصص اخرى

بقلم

عبد الحميد الانشاصي